ولعلّنا لا نبعد عن الصّواب إذا رأينا أن هناك – إلى جانب جودة القصيدة من النّاحية الفنيّة ، وهو أمر لا ينكر عليها – عاملين جعلا لهذه القصيدة مكانةً خاصّة : أحدهما مُتَعَلّق بشخصيّة الرّسول ﷺ والآخر متعلّق بشخصيّة الشّاعر .

أمّا العامل الأوّل ، فإنه يتمثّل في سماحة خُلُق الرّسول وإيثاره للعفو عمّن جاءه تائبًا منيبًا ، فهو في سلوكه مع أصحابه وأعدائه يُصَدّق قوله تعالى : « وما أرْسَلْناكَ إلا رَحْمَةً لِلْعالَمين » ويتّبع هَدي كتاب الله الذي أثنى على : « الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » ، ولا غَرْوَ فقد كان خُلُقُه عليه السّلام القرآن كما قالت السيّدة عائشة . وما أكثرَ ما روت لنا كتبُ السّيرة من أخبار حول عفو الرّسول ﷺ عمّن استبلغوا في الإساءة إليه وإلى دعوته ، ومنهم شعراءُ كان صنيعهم شرا من صنيع كعب ، غير أنه ربما كانت الدّلالة في خبر كعب أعمقَ منها في حالات غيرِه ، فالرّسول لم يكتَفِ بالعفو عنه ، بل زاد على ذلك أن وهبه من التّكْرِمَة ما لم يتسنّ لغيره ، فقد خلع عليه بُرْدَته التي آلت بعد ذلك إلى الخلفاء ، ولا شكّ في أن هذه الهِبَة الجَليلة كانت مما أسبغ على قصيدة كعب جلالاً وقيمة خاصّة .

وأمّا العامل المُتَعَلّق بشخصيّة كعب فإنه يَتَجَلّى في التّغيُّر الكبير الذي أحدثه فيه لقاؤه للرّسول وما قابله من إحسان وتكريم . فقد رأينا كيف كان قبل إسلامه « رجلاً شرّيرًا شَرِسًا مِمْلاقًا » ، وكيف كان سوء خلقه مُثيرًا لنزاع كبير بينه وبين امرأته مما سجّله في شعره ، فإذا به بعد لقائه للرّسول ﷺ يسلم ويحسن إسلامه وتصلح حاله ؛ حتى كأن ذلك اللقاء كان عصاً سحريّة ، حَوّلت نوازع الشّرّ في هذا الرّجل إلى خير مَحْض ، بل إننا نراه – كما يشهد بذلك شعرُه – يتحوّل إلى داعِيَة يحضُّ قومه على التّمسُّك بالإسلام ، ويدعو مُشركي قومه إلى الدُّخول فيه .